الوعي التاريخي كقوة للتجاوز؟؟

أ/ حسن بن حسن

١ :أهمية التاريخ للبشرية:

ليس الهدف من دراسة التاريخ مجرد معرفة الحوادث الماضية، وتراكم المعلومات من الوثائق والحفائر والمخطوطات وأمهات المصادر الأولى، فذلك وقوع في النزعة التاريخية التي سادت الدراسات التاريخية في الغرب في القرن الماضي، خاصة في ألمانيا وفرنسا.

وهو أيضًا وقوع في الرد التاريخي الذي نبهت عليه الدراسات التاريخية المعاصرة وحذرت منه، ويعني رصد الوقائع التاريخية الواحدة تلو الأخرى، دون معنى أو دلالة أو قانون، وتغليب المكان على الزمان، والانقطاع على الاتصال.

ويشبه ذلك أيضًا "الحوليات" التي ترصد الحوادث عامًا بعد عام دون رؤية لمسار التاريخ أو قصده أو غايته، فهو علم تعرف به أحوال الأمم الخالية من حيث معيشتهم، وسيرتهم، ولغتهم، وعاداتهم، ونُظُمِهم، وسياستهم، واعتقادهم، وآدابهم، حتى يتم بذلك معرفة أسباب الرقي والانحطاط في كل أمة وجيل.

إذن ما الهدف من دراسة التاريخ وما المنفعة التي تعود منه على الشعوب؟ الهدف من دراسة التاريخ هو تنمية الوعي التاريخي وتعميقه، حيث إن الإنسان كائن تاريخي، ومعرفته بالعالم تصب في تاريخه، إلى جانب أن دراسة التاريخ ليست غايةً في ذاتها من أجل عمل أرشيف للتاريخ خارج الوعي القومي، بل وسيلة لتعميق الوعي القومي ومده بخبرات تاريخية سابقة، تساعده على رؤية الحاضر ومكوناته التاريخية، ودون الوعي التاريخي تتأرجح الدراسات التاريخية بين النزعة التاريخية عند الخاصة والنعرة الخطابية عند العامة.

لذا يتم تحديث الدراسات التاريخية عن طريق اكتشاف الوعي التاريخي ومراحله، تبلوره، وتوضحه، وتعيد إليه ميزان التعادل، فلو كانت البشرية متجهة نحو الماضي لكانت مهمة الدراسات التاريخية فك إزار الماضي، ولو كانت غائبة عن المستقبل لكانت مهمة الدراسات التاريخية رصد مسار التاريخ من أجل التعرف على طبيعة المرحلة القادمة، وإن كانت غائبة

عن الحاضر لكانت مهمة الدراسات التاريخية تحليل الوعي الحاضر، إذن المهمة الرئيسة لدراسة التاريخ هي الوعي بالتاريخ.

٢–الوعي التاريخي وأهميته في بناء الأمم:

يعرف الوعي التاريخي بأنه القدرة على تحويل الماضي إلى قوة للحاضر والمستقبل، والتحرُّر من تبعات وأخطاء الماضي، ودراسة الوسائل التي تساعد على بناء الأمة من خلال استقراء الأحداث التاريخية للأمم.

الوعي التاريخي يضع الماضي في سياقه الخاص، ويفهمه وفق ذلك السياق، الوعي التاريخي يخرج الإنسان من الماضي إلى الحاضر، فيجعل هناك فصلاً في الوعي بين الماضي والحاضر كما هو في الواقع.يغلب على الإنسان الحنين للماضي، وتربطه به علاقة رومانسية في الغالب، ويسقط فيه الكثير من آثار علاقته القلقة مع واقعه، الوعي التاريخي يحرر الإنسان من أسر الماضي، فحين نستمع إلى الكثير من الفاعلين العرب في السياسة والاجتماع والثقافة، نجد أنهم يقعون أسرى للماضي ولا يستطيعون التفكير انطلاقًا من معطيات واقعهم الذي يعيشونه.

وهذا أحد أهم أسباب الفشل التي يعانيها التفكير العربي، إنه يفكر في حاضره من خلال في الكثير من الإشكالات التي تتسبب في النهاية في إحداث فشل كبير في الحياة؛ لأن كل جهد الإنسان في هذه الحالة يصبح مضادًا لمنطق العصر والحياة، يصبح جهدًا في الاتجاه الخاطئ.الوعي التاريخي يساعد في الفكاك من أسر التاريخ وصورته المبجّلة دائمًا فهو يقدمه بنسبيّته وداخل إطاره الخاص، كما يساعد في الاستيقاظ من الأحلام الوردية التي يعيشها الإنسان ويتوغل فيها هربًا من واقعه المرير.

وهنا تأتي الأهمية الكبرى للوعي التاريخي عربيًّا، فالتاريخ العربي والإسلامي لا يزال يقرأ بدون وعي، لا يزال يقرأ قراءة تبجيلية سطحية تتسبب في إفساد الصحة العقلية التي يتمتع بها الأفراد، لا يزال التاريخ يدرس في المدارس والجامعات ويستحضر في الوعي بصورته الرومانسية وبدون حس نقدي وبدون محاولة فهم لتاريخيته.

إن التاريخ العربي والإسلامي يقدم اليوم على أنه صورة المستقبل المنشودة، وهذا هو سبب السير التائه للماضي، فالناشئة المسلمون والعرب يُعدُّون اليوم ليكونوا صورًا لأبطال الماضي،

وهذا هو سبب الاغتراب الذي يعيشه الفرد العربي. كما أن الوعي التاريخي يساعد كثيرًا في الفكاك من الفكر الأسطوري أو على الأقل التخفيف منه، فالفكر الأسطوري يصور رموزه "الأساطير" بشكل مفارق للواقع ويقدمهم بطريقة خارقة تساعد في تزييف الوعي وتعطل قدرات الإنسان على التفكير والنقد والنظر بشكل طبيعي للحياة.

تعالوا ننظر كيف نقدم شخصياتنا التاريخية انطلاقًا من أجدادنا القريبين وليس انتهاء بأولئك المغرقين في القدم، يقدمون كأنهم مفارقون للواقع، كأنهم لا يعيشون ضمن هذه الظروف، بدون أخطاء، بدون نواقص، بدون نزوات، أو رغبات، ودون أهداف دنيوية وأغراض إنسانية.

وهنا تتسبب هذه الشخصيات في مشكلة كبيرة، فهي من جهة لا تُجارى ولا يمكن أن يأتي أحد بما أتت بسبب مثاليتها المفرطة، ومن جهة أخرى فهي لا تنتمي للعصر الذي نعيشه وتُقدم كنماذج فيه.

الشاب العربي اليوم يحمل في جمجمته مثالاً أصبح عبئًا عليه وسببًا في إخفاقه في الحياة، مثالاً يحمل سيفه ليصلح هذا العالم الفاسد أو غير الخاضع له، وهذا ما يجعله ينزلق بسهولة في سياقات الإرهاب والعنف، فتطبيق مثال الأسطورة التي يحملها من تاريخه اليوم يقوده على هذا الطريق.

الوعي التاريخي يساعدنا على الوعي بنسبية أفكارنا ويحمينا من التعصب لها؛ لأنها في نهاية المطاف نتيجة لظروفنا الحالية وبالتالي فهي متغيرة وغير ثابتة، نسبية لا مطلقة، مناسبة ربما لنا الآن لكنها ليست مناسبة لغيرنا بالضرورة ولا لنا في وقت آخر.

الوعي التاريخي يساعد في قراءة الماضي والحاضر والمستقبل، وهو وعي بالزمن، وآلية أساسية في التجديد والتطوير والنهوض، فهو يضع الإنسان أمام مسؤولياته التي يفرضها عليه واقعه الحقيقي دون أن يرتمي بشكل مرضي في أوهام الماضي وخيالات الأساطير.

الوعي التاريخي كان نقطة الإنسان للسير للأمام، بعد أن طال دورانه في حلقات مفرغة، فهو الذي جعل الإنسان في العصر الحديث يقفز قفزات نوعية للمستقبل ويفارق الكثير من المستويات التي قبع مديدًا فيها.

الوعي التاريخي جعل الإنسان يتحرر من الكثير من الأوهام، أوهام الكمال والمثالية، كل شيء تاريخي، كانت هذه فكرة ثورية في تاريخ الإنسان، فكرة تحررية من هالة الأشخاص والأفكار، من سطوة الماضي.

٣- قدرات الوعي التاريخي في نهضة الأمة:

عند الحديث عن الوعي التاريخي كعامل أساسي في نهضة الأمة فهذا يستدعي امتلاك التاريخ مجموعة من القدرات لتحويل الماضي إلى قوة تحرر، ودراسة للحاضر والمستقبل، ومن تلك القدرات استخدام التاريخ كأداة لتوجيه الشعوب وتربية الأفراد تربية تخضع للتوجه العقدي والفكري الذي يحكم النسق الحضاري لكل مجتمع من المجتمعات، ويكفي في هذا الصدد أن كل المذاهب الفكرية في فلسفة التاريخ والحضارة تحاول جاهدة إيجاد سند لمصداقية نظرياتها من خلال أحداث التاريخ ووقائعه.

ويحتاج التاريخ أيضًا إلى تفكيك الماضي وقراءة أحداثه قراءة تساعد على بناء القاعدة السليمة للحاضر، إلى جانب أنه يحتاج إلى رسم خطة، حيث إن قيمة التاريخ أو فائدة التاريخ تظهر في أنه يتضمن الأسباب التي أوجدت الرجال والشعوب والإمبراطوريات في الوقت الحاضر ويمدنا بالوسائل التي نستطيع بها وضع الأسس لخطط المستقبل.

٤- قيمة الوعي التاريخي:

وقيمة الوعي التاريخي بهذا المفهوم ترجع أساسًا إلى كون علم التاريخ ومعرفته تجربة وعبرة أو كما يعبر عنه ابن خلدون: "فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا"، ذلك أن التاريخ في حقيقته "خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال".

ثم في كونه أيضًا "تجربة عطاء في شتى مجالات المعرفة والحركة الإنسانية... وأنه حصيلة سنن تحكم الطبيعة والإنسان والعالم".

وكثيرًا ما يؤكد القرآن العظيم وهو الكتاب الحق والخالد على ضرورة الوعي التاريخي، ويدعو المسلمين إلى التبصر الجاد والمستمر بأحوال الأولين، والتمعن في سيرهم للاعتبار والاتعاظ بما جرى لهم؛ حتى لا تتكرر الأخطاء، وحتى يتجنبوا مزالق التيه والضلال التي وقع فيها من سبقهم من الأمم، ومن ثَم لينقذوا أنفسهم والبشرية من حولهم بما أنهم شهداء عليها من سوء العذاب وخسران المصير.

كما أوضح لهم أكثر من مرة أن السنن المسيرة لحركة التاريخ لا تقتصر على شعب دون شعب ولا على إقليم دون آخر حتى يأخذوا حذرهم.

فالمسائل التاريخية –إذن– المتعلقة بالشعوب السابقة وبمصير الأمم وأحوالها وعلاقاتها الحضارية ثم أسباب سقوطها... وانهيار الحضارات السالفة متوافرة ومطروحة في القرآن الكريم بشكل بارز: "إن آياته البينات ترحل بالمؤمنين عبر كل تلاوة في مجرى الزمن، وتحكي لهم عن وقائع التاريخ المزدحمة وأحداثه المتلاحقة ومعطياته المتمخضة عن القيم والعبر والدلالات... ومعظم سور القرآن تضرب على الوتر نفسه، فلا تكاد تخلو من واقعة تاريخية أو حدث ماضٍ أو دعوة لاستلهام المغزى من هذه التجربة أو تلك.. إن الامتداد الذهني والوجداني إلى الماضي يشكل مساحة واسعة في كتاب الله".

٥– فلسفات التاريخ:

فلسفة التاريخ هو ذلك العلم الذي يحاول أن يكتشف القوانين الموجهة لحركة المجتمعات والدول والنهضات وأسباب صعودها وهبوطها.

وليست وظيفة هذا العلم قاصرة على توصيف هذه القوانين، ولكنها -كأي علم آخر- تسعى لاكتشاف القوانين من أجل استخدامها وتوظيفها لمعالجة الظواهر القائمة والمستقبلية.

"ويمكن القول أن فلسفة التاريخ في أبسط تعريف لها عبارة عن النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية، ومحاولة معرفة العوامل الأساسية التي تتحكم في سير الوقائع التاريخية، والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر القرون والأجيال. هناك من يقول أن التاريخ يسير وفق مخطط معين وليس بطريقة عشوائية وأن فلسفة التاريخ هي رؤية المفكر للتاريخ أو حكمه عليه".[1]

٦- فلسفات إمبريالية في قراءة التاريخ:

من أوجه العلاقة المرضية في التاريخ ما يمكن أن نسميه بالفلسفات الإمبريالية للتاريخ، وهي المحاولات الكبرى لنحت تاريخ معنوي وثقافي واحد للعالم، وإدماج التواريخ الجزئية للشعوب وللثقافات وللأمم في هذا التاريخ الكوني المشترك، وكأن تاريخ العالم كله يتجه إلى مصب واحد.

ومن هذه المحاولة ما قام به هيجل بمحاولة لبناء تاريخ فلسفي أطلق عليه "روح العالم"، وفي هذا التاريخ الكوني الوهمي يصبح تاريخ الإنسان الغربي الحديث مرصدًا لما سواه من تواريخ الشعوب والأمم ويصبح المرجع الفعلي لتواريخ الشعوب عامة.

كما أشار إلى أن التاريخ ليس ذلك المدونات النظرية التي يقوم خلالها المؤرخ بسرد الأحداث والوقائع وتبويبها وتقديمها للقارئ بصورة خطية مستقيمة، كما أنه ليس ذلك النمط الذي يتعرض للوقائع التاريخية الماضية بهدف استخلاص العبر والدروس من ذلك الماضي، واقتراح حلول معاصرة اتكاءً على أحداث الماضي، باعتبار أن التاريخ شاهد ومهمين على العقل الكلي، وبالتالي فإن أحداثه الماضية التي أدار من خلالها العقل لتصريف الوقائع التاريخية الماضية صالحة لاستخلاص الآلية المناسبة منها لإدارة الوقائع الحالية، فهذا كله وأمثاله لا يعد

[1] دكتور رأفت غنيمي الشيخ، فلسفة التاريخ.

في نظر هيجل تاريخاً بالمعنى الفلسفي لكلمة التاريخ إلا بمقدار تقديمه للأحداث التي وقعت كناحية وصفية ليس إلا.

أما التاريخ الحقيقي وفق الفلسفة الهيجلية فهو ذلك التاريخ الذي يهيمن على الوقائع ويصوغها ضمن منطقها الداخلي، من خلال تفاعل الشخصيات التاريخية نفسها مع المقصد الخفي الذي يبلوره المنطق الباطني للتاريخ، حيث يقوم التاريخ وفقاً لهذه الفلسفة بتفسير الوقائع واستخراج القوانين والتنبؤات لما سيجري من غير التقيد بزمن معين يراد له أن يبسط قوانين وآلية جريان أحداثه على زمن آخر.

هذه الفلسفة في النظرة للعقل باعتباره جوهر التاريخ تقتضي نظرة معاكسة للنظرة التقليدية السائدة عن التاريخ التي تعتمد على جعله مهيمنًا على العقل بتوقع سيناريو للأحداث الجارية أو التي ستجري بأنها ستكون على سيناريو مشابه لأحداث تاريخية سابقة مشابهة، أما فلسفة التاريخ الهيجلية فعلى العكس منها بحيث تعتبر العقل نفسه هو من يسير التاريخ بحيث يرتب أحداثه على نحوٍ يجعلها سائرة نحو هدف أو مقصد بعيد المدى.

ومن الفلسفات الغربية أيضًا قراءة ماركس للمادية التاريخية عندما قال: "إنها تعني أن القوة الحقيقية التي تحكم التطور التاريخي في جميع حالاته تأتي من تحدد سلوك الإنسان وهو يتصرف متأثراً ببعض الدوافع الاقتصادية".

كما يرى "أن التغيرات الاجتماعية التي تطرأ على المستويات الأخلاقية والثورات السياسية ما هي إلا نتائج لتغيرات في العلاقات الاقتصادية".

ويعتبر حديث ماركس عن الصراع هو رؤية مكملة لهيجل، إذ يرى الأول أن الصراع قائم حول وسائل الإنتاج، بينما يرى الآخر أن الصراع في العالم يدور حول الأفكار.

إن فلسفة التاريخ كما تتجلّى عند هيجل وماركس، وفي الفكر الغربي على العموم هي: فلسفة غير محايدة، أي لم تبرز كنتيجة لاستقراء موضوعي وعلمي لحركة التاريخ، بل ظهرت من موقع استعلاء الثقافة الغربية، وأصبحت عن طريق الاستعمار بكل أشكاله أيديولوجية متعسفة، ولا إنسانية، تمنع الشعوب غير الغربية من أن تعيش عقيدتها، وتتبنى قيمها الأخلاقية والحضارية.

وهذا دليل على عجز الفكر الغربي عن الوصول إلى مستوى الفكر الشمولي الذي يؤهله لقيادة العالم.ففلسفات التاريخ الغربية تنقصها الرؤية المستقبلية، فهي تنطلق من الفهم المستعجل لحركة التاريخ.إن هذا المستوى من الإدراك لمجرى الحوادث ناجم من الغشاوة، التي تتخبط فيها نظرية المعرفة في العلوم الإنسانية في الثقافة الغربية بحكم النظرة المبتورة عن الغيب للواقع، تلك النظرة الملازمة للمنهج الوضعي.

إن تحليل الواقع من حيث هو مرتبط بالمطلق، يجعل نتائج الدراسة أكثر واقعية؛ لأنه يحرّرها من الفهم المتسرع، الذي ينظر إلى الوقائع مفصولة بذاتها، فتفوق الغرب مثلاً لم يربط دائمًا من طرف المفكرين الغربيين بالعوامل التاريخية التي ساهمت في نشوئه (عطاء الحضارات وخاصة الحضارة الإسلامية ثمّ الاستعمار والتبعية واستغلال الشعوب).

وإذا كانت مقولة تفوق الحضارة الغربية في فلسفة التاريخ ذي النمط الغربي مبتورة الصلة بالماضي، فهي كذلك مبتورة الصلة بالمستقبل.

٧- فلسفة التاريخ بنظرة إسلامية:

إن الإسلام ينير طريق البحث عن طريق القيم والمفاهيم كأدوات استكشافية، وهذه هي نقطة الاختلاف الجذرية بين الفهم الإسلامي وفلاسفة التاريخ الغربيين الذين لا تتجاوز نظرياتهم معطيات المرحلة التاريخية، أما المنهج الإسلامي فيتجاوز هذه المعطيات نحو نظرة مستقبلية تنير مسيرة الأمة نحو المثل الأعلى.

وعندما طور العلماء، منذ أقدم الأزمنة، النظريات التاريخية لشرح السياق العام للحوادث البشرية من خلال بعض العموميات الرئيسية، فعلى سبيل المثال، يعتبر اليونانيون القدامى التاريخ دورة من الحوادث تعيد نفسها دون نهاية، بينما تعتبره النظرية النَّصرانيَّة التقليدية سلسلة من الحوادث لها بداية ونهاية، ووفقًا لهذا الاعتقاد يوجه الله الحوادث الإنسانية نحو الهدف النهائي للبشرية، وسيطرت هذه النظرية على مجمل المدونات التاريخية في العصور

الوسطى.أما أحداث التاريخ عند المسلمين فتنبثق من تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان؛ لذا فإن حركة التاريخ في الإسلام ذات طابع مميز عن حركة التاريخ العالمي الذي لا أثر فيه للوحي، وكان حياد المؤرخين العرب وعدم تحيزهم سمتين من السمات الكثيرة التي أضفت على نظرة العرب للتاريخ مصداقية كبيرة.

٨- مفهوم الزمن التاريخي:

ينقسم مفهوم الزمن التاريخي إلى قسمين:

١. الزمن الكرونولوجي وهو الزمن الطبيعي أو ما يقاس بوحدات قياس الزمن العادية وهذا الزمن يتسم بالتعاقب واللاعودة.
٢. الزمن النفسي وهو الزمن الذي تقضي فيه الكثافة القيادية أو النفسولوجية أو الرغبية المسافة الزمنية ويوضح هذا المعنى المثل المعروف لنيوتن: لو جلست مع امرأة جميلة تحبها مثلاً ساعة من الزمن، هذه الساعة تبدو لك وكأنها دقيقة، لكن لو جلست فوق تنور ساخن دقيقة تبدو لك وأنها دهر.وهذا الزمن يتسم بأن إحساس الأفراد فيه يختلف باختلاف الأحوال الوجدانية والنفسية للفرد.

٩- قوة التكوين التاريخي:

إن الذي يتأمل في تاريخ الحركات الاستقلالية الإسلامية وغير الإسلامية على مدار التاريخ يجد أن كل حركة تبدأ بفكرة ولودة، ثم تتحول إلى حركة فتية قوية شابة، فإما أن تنجح في تحقيق أهدافها، وإما أن تُسحق وتصاب بالإعاقة، ثم تبدأ أعراض الشيخوخة تدب إليها، فإذا واصلت الطريق وظلت بحيويتها واتجاهها صوب الأهداف فإنها تنتصر، أما عندما يتضاءل سقف أهدافها فإنها تخبو وتهرم، إذ تركن للنعيم وتستمرئ السكون، فتأتي مجموعة جديدة فتية تتجه نحو نفس الهدف، وإما أن تنجح أو تفشل وهكذا.

إن من أخطر الأمور أن يطول الزمن على الحركة أو التيار دون أن يحقق هدفه، فالعمق التاريخي لأي تيار يكسبه شرعية وجماهيرية كبيرة، في حالة كونه ينتقل من هدف إلى هدف، ويقطع شوطاً تلو شوط، لكنه في حالة فشله وعدم تمكنه من الصعود على سلم الأهداف فإن ذلك عادة ما يكون له تأثير سلبي.

حيث إن العمق التاريخي للحركة يصبح عبئاً عليها، إذ تقع دائمًا تحت مطارق التساؤلات عن نجاحاتها في هذه الفترة الطويلة، كما أن آثار الهزيمة وأشباحها غالبًا ما تكون عائقًا نفسيًّا قبل الإقدام على شوط جديد.

ليست الأمة الإسلامية بدعًا من الأمم، بل ينطبق عليها هذا القانون كما ينطبق على غيرها، وقد مرت الأمة في مسارها الحضاري بسلسلة من التحديات تبعته سلسلة من الاستجابات (الفاشلة والناجحة) استطاعت معها التغلب على تلك التحديات.

١٠- قوة التكوين التاريخي عند العرب:

بعد قرون طويلة من الخضوع لقوى خارجية، وجد العرب أنفسهم في مواجهة عصر تبحث فيه كل قارة عن شخصيتها، وتوحيد ثقافاتها، وإيجاد دور يليق بها في التاريخ العالمي.

فقدمت أوروبا مثالاً بارزًا على هذا المسار الذي تحول إلى نموذج يحتذى به في العالم كله للتوحيد القاري على أسس ديمقراطية سليمة، وبشكل تدريجي على المدى الزمني الطويل.

وقد تمحورت أسئلة المؤرخين العرب حول ضرورة تجديد النهضة العربية بعد ولوج جميع الدول العربية مرحلة الاستقلال السياسي، باستثناء فلسطين.

وكانت تلك الأسئلة ذات طابع شمولي، تتجاوز دور الجماعات أو القُوَى المحلية داخل كل دولة عربية إلى ضرورة انخراط جميع الدول العربية في وحدة سياسية واقتصادية، على أسس ديمقراطية سليمة بعيدة كل البعد عن كل أشكال القمع، وسيطرة الأخ الأكبر على الأخ الأصغر، أو قيام الوحدة العتيدة على أساس "الإقليم القاعدة"، الذي تلحق به قسريًّا جميع الدول العربية. فشرط التوحد القابل للحياة في زمن التكتلات الجغرافية الكبيرة على مستوى

التاريخ العالمي هو الحرية والديمقراطية على المستوى السياسي، والليبرالية على المستوى الاقتصادي، والتنوع والانفتاح على المستوى الثقافي.

واندرجت أسئلة المؤرخين العرب في عصر العولمة ضمن أطر منهجية قديمة – متجددة لأن أيًّا من مقولات عصر النهضة لم تطبق طوال مرحلة الاستقلال السياسي للدول العربية.

ولهذا تتطلب قوة التكوين للتاريخ العربي قيام نهضة عربية على أسس جديدة تتلاءم مع طبيعة عصر العولمة، وتحدياتها، وفي طليعة تلك الأسس بروز أحزاب سياسية تمارس الديمقراطية بشكل سليم، وتعزز دور المؤسسات التي تفرز قيادات متنورة من نوع جديد، تؤمن بثقافة التغيير الجذري من حيث هي فعل إيمان بقدرة الذات العربية على التجدد، وتتجاوز نفسها باستمرار نحو مراتب أكثر تقدمًا.

وما تحتاجه الشعوب العربية للدخول في التاريخ العالمي من موقع الفاعل فيه لا يقتصر على مجموعة قيادات سياسية متنورة فحسب، بل أيضًا مؤسسات سياسية، واقتصادية، وثقافية، ومراكز أبحاث عملية قادرة على توليد ثقافة عصرية تسهم في التغيير الجذري وتمهد لولادة إنسانٍ عربيٍّ حرٍّ، وقادر على إطلاق نهضة عربية جديدة لمواجهة تحديات عصر العولمة.

ومن العبث أن يستمر عرب اليوم في البحث عن قائد فذٍّ يعيد للعرب دورهم التاريخي المفقود طالما أن مصير الأمة العربية كلها عرضة للضياع على مشارف القرن الحادي والعشرين، فالمشروع النهضوي العربي في عصر العولمة يحتاج إذن إلى مقولات جديدة تتجاوز دور الفرد إلى دور المؤسسات والدول.

ويتطلب تنفيذه تكامل الحلقات الثلاث التي تعتبر ركائز ضرورية لنجاحه، وهي: المثقف العربي الحر، والمزود بعلوم عصرية، والمؤسسات الثقافية، والمالية القومية العربية التي ترعى الإبداع العربي على أنواعه وتساهم في التنمية البشرية المستدامة في الوطن العربي، والقيادة السياسية المتنورة، والعاملة على بناء مشروع نهضوي جديد انطلاقًا من التاريخ الحافز لأمة عربية ذات ماضٍ ذهبي، وأنتجت حضارة إنسانية كونية.

لذا، فاستعادة دور العرب الفاعل في عصر العولمة والتاريخ الكوني العالمي المعاصر تفترض بالضرورة إعادة نظر منهجية في إشكاليات الوعي التاريخي العربي، وبشكل خاص مقولة "البطل القومي العربي المنقذ للأمة".

فإشكاليات عصر العولمة تختلف جذريًّا عما كانت عليه في زمن الفتوحات الإسلامية الأولى، كما أنها تتجاوز مفاهيم الفرد البارز، أو القائد الفذ الملهم، أو المستبد العادل، إلى تكامل دور القيادات والمؤسسات والجماعات والشعوب.

وليس من شكٍّ في أن استعادة العرب لموقع جديد فاعل في التاريخ العالمي يتطلب إنجاز بعض الأهداف الملحة التي لا يستقيم مسار التاريخ العربي بدونها، وفي طليعتها بناء الوحدة العربية كحاجة ملحَّة في عصر التكتلات الجغرافية والقارية الكبيرة.

فالدول الصغيرة، الغنية منها والفقيرة على حد سواء، غير قادرة على حماية سكانها في زمن السلم كما في زمن الحرب، كما أنها عرضة لمضاربات مالية تقوم بها الاحتكارات، والمؤسسات المالية الكبرى.

وبعد أن تَهَرَّبَ قادة العرب طويلاً من موجبات بناء الدولة القومية الواحدة والموحدة –فقد أصبحوا اليوم محكومين، أكثر من أي وقت مضى، بقانون التوحيد الجغرافي الذي يشكل السمة البارزة في عصر العولمة، مع موجبات اختيار الشكل الأفضل للدولة الاتحادية.

نخلص إلى القول بأن الفكر التاريخي العربي في المرحلة الراهنة من عصر العولمة يواجه إشكاليات لا حصر لها، وهي تطول ماضي العرب، وحاضرهم ومستقبلهم في آنٍ واحد.

١١– حتى لا يصبح التاريخ إعاقة للمستقبل:

هناك مصطلح عند دراسة علم التاريخ يطلق عليه المرض التاريخي وبتعريف بسيط له نجد أنه إعاقة الماضي للحاضر والمستقبل، ومن أشكاله غياب التكوين الفعلي لرسم الصورة الصحيحة للأحداث التاريخية، وعدم القدرة على تحويل التاريخ إلى قوة دفع للمستقبل والاكتفاء فقط بعملية التقمص التكراري لأحداث التاريخ.

فلقد كان علم التاريخ في الماضي علم تثبيت الحاضر وتبرير أحواله، والمحافظة على حسناته وعلى حماقاته على حد سواء، ومن ثم كان التاريخ من وسائل الرجعية ومحاربة التقدم، وحتى لا يكون التاريخ سببًا في الإعاقة للحاضر والمستقبل لابد أن يتم الربط بين الماضي والحاضر داخل الوعي القومي الواحد لتحقيق الاستمرارية في الشخصية التاريخية والكشف عنها، ورصد مراحل تطورها ومسارها في التاريخ.

كما يجب العلم بأن تحقيق النهضة والريادة الحضارية لا يعدُّ مطلبًا إسلاميًّا فقط، وإنما تعد مطلبًا إنسانيًّا، تسعى كل أمة من الأمم على مدار التاريخ والأزمان لتحقيقه باستجابات مختلفة ولتحديات مختلفة، فينجح بعضها ويفشل البعض الآخر.

ولقد استطاعت بعض الأمم أن تنهض وتخرج تباعًا من الطوق الذي يحيط بعنقها، رغم شدة التحديات التي تواجهها، مثل الصين والهند وآخرون لما يلحقوا بهم بعد، وهم يجسدون نماذج حية شاهدة على إمكانية الخروج من أسر التحديات.

إن دراسة بعض هذه النماذج في عجالة يؤكد أن نهوض أي أمة أمر ليس بالمستحيل، شريطة أن تمتلك هذه الأمة إرادة التغيير.

وحتى لا يقف التاريخ حجر عثرة في طريق نهضة الأمم فلابد من الفهرسة الصحيحة لأحداث التاريخ؛ لأن المفاهيم المستخدمة في حقل الدراسات التاريخية مفاهيم ملتبسة وغامضة، ومصدر للكثير من الإرباك والتشويش، وذلك بسبب تبدل الظاهرة التاريخية وتغيرها وتطورها وعدم ثباتها على حال واحد، على عكس الظاهرة الطبيعية.

كما أن جزءاً من غموض والتباس مفهوم التاريخ يعود إلى الخلط بين التاريخ وقواه التي هي الحضارة والمدنية والثقافة، وأن عدم الاكتراث بمناقشة الألفاظ يصاحبه في المعتاد تشوش في الأفكار حول الأشياء ومفاهيمها.

لذا فالفهرسة الصحيحة للتاريخ وقواه تقوم على أن التاريخ هو مجمل الخبرة الإنسانية في الحضارة والثقافة المدنية، وأن الحضارة سياسةً وأخلاقًا وتشريعًا هي القوة التنظيمية في التاريخ، وأن الثقافة علمًا وأدبًا وفنًّا هي قوة التاريخ الإبداعية، وأن المدنية زراعة وصناعة وعمارة هي القوة المادية السلعية في التاريخ.

فخلاصة القول في كل ما أوردناه هو الآتي:

أولاً: يجب علينا أن نضع حدًّا للجفاف الذي يصبغ تعاملنا مع التاريخ، وأن نحدد رؤيتنا وفهمنا ودراستنا لتاريخنا الإسلامي، وأن نعمل على إيجاد صيغ سليمة ومتينة تمكننا من التفاعل الهادف مع التاريخ ومن التزود الواعي والمستمر من معينه الخصب، وهذا لن يحصل إلا من خلال دراسة عميقة واعية ومتكاملة للتاريخ الإسلامي.

إن دراسة تاريخ الإسلام في هذه المرحلة من حياتنا ضرورة لا سبيل إلى تجاوزها لفهم الأحداث وتطور المجتمع ولمعرفة مكان العالم الإسلامي والأمة العربية من الحضارة العصرية.

فإن نظرتنا إلى الأحداث لا تصدق إلا إذا قامت في ظل مفهوم شامل وفي إطار تاريخ الإسلام نفسه، كما أن اتصالنا بالغرب اليوم يجب أن يقوم على مفهوم مرحلة هي رد فعل لمرحلة قد سبقتها بحسبان أن هذه الحضارة العصرية الغربية ليست منفصلة عن عالم الإسلام، وإنما قامت قواعدها على المنهج التجريبي الإسلامي، وعلى بناء صاغه العلماء المسلمون، فنحن حين نتصل بها اليوم لا نكون غرباء عن جذورها، فهي ملك للبشرية كلها التي صاغتها وشاركت في تكوين جوانبها المختلفة.

وثانيًا: يجب أن يتأكد لدينا أن قضية الوعي التاريخي أصبحت ضرورية، بل مصيرية يتحتم علينا أن نوليها اهتمامًا بالغًا وعنايةً فائقةً، ليس على مستوى الترف الفكري بتكديس الدراسات وتحبير المقالات، ولكن -وهذا هو الأهم- على مستوى الوعي والتربية والحركة، وعلى مستوى التعامل والممارسات اليومية، وهذا لن يتيسر إلا ببعث سياسة تعليمية وتربوية متأصلة، تركز على بعث الوعي التاريخي الهادف وتعميق البعد العقدي في برامجها على طول المراحل التعليمية.

بدءًا برياض الأطفال وانتهاءً بالتعليم العالي ويرادفها -أي هذه السياسة التعليمية- جهاز ثقافي وإعلامي في مستوى العصر تجهيزًا وتقنيةً يؤثر ولا يتأثر، ويتوخى الصدق والعلمية والموضوعية في كل أعماله.